حب الله لعبده والكلام في اليقين

اذا أحب الله العبد كشف عن قلبه الحجب حتى يراه بحقيقة ايمانه

فضيلة
الشيخ سليمان المدني

معنى حب الله لعبده ان يكشف الحجاب عن قلب عبده حتى يراه وان يزيل الموانع عنه حتى ينقرب اليه بالافعال الصالحة ويكون منه من الدرجات العليا، وذلك بمنّ الله سبحانه وتعالى على عبده وان يكون ذلك مما اريد له من الازل، فاذا كان كذلك صار لا يسمع الا الحق ولا يرى الا الحق من الحق، كما ورد في الحديث القدسي (لايزال العبد يتقرب اليّ بالنوافل حتى احبه، فاذا احببته صرت عينه التي يبصر بها واذنه التي يسمع بها ويده التي يبطش بها) فالنوافل صارت سببا موصلا الى محبة الله سبحانه وتعالى فاذا احبه الله وفقه لكل الاعمال الصالحة وجنّبه مواضع ما يسخط وعلامة ان يكون العبد محبوبا عند الله فهناك علامات كثيرة.

ولكن من اوضح هذه العلامات ان يشعر العبد بحبه لله سبحانه وتعالى فاذا شعر العبد بحبه لله علم ان الله قد احبه، فانه اذا القى الله محبته في قلب العبد فقد قرّبه منه كثيرا، وعليه ان يخلص في هذا التقرب، وان يعمل جاهدا بالا يُبعد بعد ان قُرّب وان لا يُطرد بعد ان أُدني من مقام كهذا المقام، فعندئذ تزول الموانع التي تمنعه من التقرب الى الله فيداوم على الطاعات ويتجنب المعاصي فيزداد عند الله حبا وكلما ازداد عند الله حبا كلما تولى الله اموره.

فاذا تولى الله اموره، صار عينه التي يبصر بها وصار اذنه التي يسمع بها، ويده التي يبطش بها، وعندئذ يكون متنفذا في الكون بقدر ما احبه الله وبقدر قربه من الله كما ورد في حديث قدسي (عبدي اطعني تكون مثلي، اقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون).

واهم ما في هذا المبحث هو الجملة الاولى ان معنى حب الله للعبد ان يزيل الحجب بينه وبين العبد حتى يراه بقلبه..

وقد تكلمنا في محاضرة سابقة عن معنى الرؤية وبيّنّا ما هو الحق فيها من ان الله سبحانه وتعالى لا يرى ببصر العيون لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا يعرف بوهم العقول لا في الدنيا ولا في الاخرة، وانما تراه القلوب بحقائق الايمان وذلك ان الله هو اظهر الموجودات (الله نور السموات والارض) فلشدة ظهوره صار خفيا وهو ادنى الموجودات من الانسان ولشدة دنوّه صار بعيدا فهو الظاهر وهو الباطن.. الظاهر لانه نور السموات والارض هو الذي يظهر الاشياء فيكون هو احق بالظهور منها فلا يصح ان يستدل بها عليه من حيث انها اعرف منه واظهر منه بل هي لا شك اخفى منه ولكن لشدة جلائه صار لا يظهر..

ولنضرب مثالا محسوسا عندما تظهر الشمس في النهار نشاهد الاشياء بالوانها واطيافها وقوامها فلو ان هذه الشمس قدّر لها الا تغرب وكنا من حين ولادتنا نشاهد ضياءها لاعتقدنا بانه ليس لهذه الاشياء من حقيقة الا الوانها واطيافها وهيكلها المرئي وعندئذ لا ندرك ان للضياء تاثيرا عليها في اظهارها لاننا سوف لن ندرك شيئا اسمه الضياء، اذ لم نرَ شيئا ليس بضياء حتى نفرق بين الضياء ولا ضياء فعندئذ لا ندرك هذا المعنى ولكن اذا جنّ الليل تغرب الشمس فتزول عن الاشياء تلك الالوان وتتبدل وتتغير النظرة اليها وذلك لان النور الساطع والمبهر لهذه الاشياء قد ذهب وساد بدله الظلام، فلوجود هذا الظل عرفنا معنى الضياء، لوجود الظلام عرفنا النور وفرقنا بين هذين الضدّين ومالا ضد له كيف نعرفه ؟

انما نعرف الاشياء باضدادها فما كان عاما وما كان دائما وما كان أزليا وما كان متوحّدا ليس له ضد حتى نميزه ونعرّفه بضده.. وكذلك لو كانت الاشياء تتفاوت في دلالتها عليه ونسبتها اليه لكان ربما نفرّق او ربما نعرف من ذلك معنى التفاوت في هذه الدلالة ومعنى التغير في هذه النسبة ولكن لما كانت كل الاشياء التي ندركها بحواسنا الظاهرة والتي نـدركها بحواسنا الباطنة والتي نتعقلها بافئدتنا وقلوبنا كلها على نسق واحد في الدلالة وعلى درجة واحدة من النسبة لم نتمكن من الادراك التام لهذه النسبة او لهذه الدلالة.

لذلك فان شدة الظهور وشدة الدنّو هما اللذان اوجدا الخفاء وهما اللذان اتعبا الافكار والقلوب في الادراك، فظهوره سبحانه وتعالى ودنوه من الاشياء واحاطته بالاشياء والاتساق الواحد في دلالة الاشياء عليه والدرجة الواحدة في الانتساب اليه هي التي اوجبت الخفاء وهي التي اوجبت ان يكون باطنا.

يقول الحسين عليه السلام في دعاء العرفة (وكيف يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ؟) طبعا ليس لغيره من الظهور ما ليس له بل هو اظهر منها واجلى وهي في حد وجودها، وجودها ظل من ظلال وجوده ورشحة من رشحات كرمه وجوده فلا تكون دالة عليه بل هو دال عليها، هو مُظهر لها وهو اعرف منها ولكن لوجود الاضداد بينها عرفناها ولعدم وجود الضدّله لم نعرفه، هو لدوام ذلـك ولعمومـه وشموليته وازليتّه وقيوميّته..

فاذن ليس هناك خفاء وانما هناك كما في تعبير امير المؤمنين عليه السلام ـ بطون.. يقول ظهر فبطن، ظهر ولشدة ظهوره بطن اي صار باطنا، لا انه خفي، لو كان اخفى من غيره لما كان مظهرا لغيره..

اذا احب الله العبد كشف عن قلبه الحُجب حتى يراه بحقيقة ايمانه هذا معنى الجملة الاولى، وإلا فالله سبحانه وتعالى ليس خفيا البتة، بل كل ما سواه لا يُعرف الا به ولا يظهر الا بنور وجهه الكريم.. ملأ نور وجهه الكريم اركان كل شيء واستضاء به كل شيء فهذا الماء وهذه الاستنارة هي التي اظهرت الاشياء، فلا تكون الاشياء مظهرة له، وهذا الماء وهذه الاستنارة هي التي عرفت الاشياء، فلا تكون الاشياء معرفة له والا لو كانت معرفته تتوقف على معرفتها والحال انها لا تظهر الا بالاستضاءة به لكان معرفتها مستحيلا..

فارتفاع الحُجب عن قلب الانسان بحيث يرى ويشاهد جلال الملكوت وهذا النور الالهي هذا هو تمام حقيقة الحب لله.. ونختم الكلام في الحب ولا نرغب ان نتشعب فيه من الوجهات الفلسفية ونتكلم في معنى آخر ايضا يتعلق بهذا المعنى وهو مقام اليقين..

يقول سبحانه وتعالى (والـذين بالاخرة هم يوقنون) ويقول النبي (ص) من اقل ما او تيتم اليقين والصبر على العزيمة ومن اوتي حظه منهما لم يضره ما يفوته من قيام الليل وصيام النهار. وقال صلى الله عليه وآله لما قيل له : رجل كثير اليقين الا ان له ذنوبا كثيرة قال ما ادمي الا وله ذنوب الا من كانت سجيّته اليقين وعادته العقل، لم تضره الذنوب. فانه كلما اذنب ذنبا تاب منه واستغفر له وندم عليه فيكفر عنه ويبقى له فضل يدخل به الجنة.

وقال لقمان لابنه في مواعظه (واعلم انه ما من عمل الا بيقين.. ومازاد عمل امرىء الا بزيادة يقينه، وما نقص عمل امرىء الا بنقص يقينه..).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وقد تكلم احدهم عن السيد المسيح انه يمشي على الماء (قال لو زاد يقينه لمشى على الهواء، كما مشى على الماء..) ويستفاد من هذه الرواية ان الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين والمعصومين عموما يتفاوتون في الفضل من هذه الجهة في زيادة اليقين.. كما ان المؤمنين يتفاوتون ايضا في هذه الجهةفي زيادة اليقين..

وسئل الصادق عليه الصلاة السلام اللتوكل حده ؟ قال نعم حده اليقين..

يعني اعلى درجات التوكل هو اليقين هذا معنى حده اليقين.. فقيل له الليقين حد ؟ قال ان يعلم بانه لا يصيبه شيء ولا يحصل على شيء الا من قبل الله، ومعنى ذلك انه ينظر انه يطوي حلقات الاسباب الوسائطية، وسائط الاسباب والمسببات ولا ينظر الا الى السبب الاول..

فبطبيعة الحال ان ما يجرى في هذا الكون من امور الخير وامور الشر بظاهرها وهي المشاهدة لنا والمحسوسة انها تكون اسبابا لبعضها البعض ومسببات عن بعضها البعض، ياخذ اولها بعنق اخرها، كسلسلة مترابطة ولكن عند التمعن والتحقيق ليس لهذه الوسائط من الفاعلية ومن التاثير على نحو الانفراد والحقيقة وانما هي في الحقيقة ليست من باب العلل والمعلولات وانما من باب الاسباب والمسببات وليست من باب العلل.. وان علة الاشياء هي ارادة الله ومشيئته وعلمه.. فانه ما لم يكن في علم الله ان يقع هذا الشيء لا يقع.. وما لم تكن ارادته سبحانه قد قضت ان يقع هذا الشيء لايقع..

وخرج (علي) عليه السلام ذات ليلة وكان له غلام يقال له (قمبر) كان محبا له حبا كثيرا وكان اذا خرج علي عليه السلام بالليل يحمل (قمبر) السيف ويخرج خلفه.. وفي ليلة التفت اليه علي عليه السلام وقال ما اخرجك يا قمبر في هذه الساعة ؟ قال خرجت خلفك يا امير المؤمنين.. قال امن اهل السماء تحرسني ام من اهل الارض ؟ قال من اهل الارض يا مولاي.. قال ان اهل الارض لا يقدرون على شيء مني مالم يأذن الله سبحانه وتعالى.. فارجع الى فراشك وقر عينا.. وجلس يوما يقضي بين اناس خلف جدار منقض، فقال له احدهم يا امير المؤمنين قم فان الجدار منقض فقال حمى امرءا اجلُه..

اليقين درجات وادنى مراتب اليقين الا يرضي الناس بسخط الله وان لا يلوم الناس على ما لم يؤته الله

يعني ان اجل الانسان يحميه من ان يصيبه شيء قبل ان ياتي وقت اصابة ذلك الشيء ولم يقم.. فلما انتهى من قضائه وقام سقط الجدار.

على اي حال ان هذه درجات عليا في اليقين ولكن المؤمن ينبغي ان يتحلى بدرجة من اليقين، وهي كما قال الصادق صلوات الله وسلامه عليه (ان لا يلوم الناس فيما لم يؤته الله وان لا يرضى الناس بسخط الله) وبطبيعة الحال هذه ادنى مراتب اليقين، الا يرضى الناس بسخط الله وان لا يلوم الناس على ما لم يؤته الله.. وسر ذلك ان الناس في العادة انما يرضون بعضهم البعض وقد يرتكبون في ذلك أسخاط خالقهم سبحانه وتعالى من اجل جلب المصالح الدنيوية ومن اجل دفع المضار الدنيوية.. فاذا بلغ اليقين بالانسان الى حد انه لا يصيبه شيء الا ما قضاه الله عليه ولا يفوته شيء قد قضاه الله عليه لم يحتج الى ارضاء خلقه بسخطه، فانه يعلم انه سواء ارضاهم ام اسخطهم فانهم لا يتمكنون من قطع الرزق له ولا يتمكنون من جلب الرزق له، ولا يتمكنون من اماتته ولا من احيائه ولا من امراضه ولا من اسقامه، الا ان يشاء الله له ذلك، وكذلك لم يلم الناس فيما آتاه الله، بمعنى انه لا يلوم الناس على انهم منعوه رزقه على انهم لم يصلوه بالمال، على انهم غير ذلك، لا يلومهم لانه وهو على يقين ومتيقن بالله يعلم ان الله سبحانه لو كتب له وقضى له شيئا من هذه الجهة لما فاته ولو انه كتب ان يرزقه من هذه الوجهة لوصل اليه رزقه.. فعندئذ لا يلوم الناس بدعوى انهم حرموه..

فليعلم ان الله سبحانه وتعالى لم يرزقه من هذه الجهة لا ان الناس حرموه لانه هناك شيئان لا مدخل للناس فيهما البتة، الرزق والعمر. بل ان الله سبحانه وتعالى يقضيهما ويكتبهما لعبده بحسب حكمته وبحسب مشيئتـه وارادتـه.. وفي الحديث (لو ان احدكم فر من رزقه كما يفر من حتفه لتبعه رزقه ولزمه كما يتبعه اجله).. اذا كان الانسان يعلم ذلك فلا داعي لان يلوم الناس على مالم يؤته الله من هذه الجهة..

وفي الحديث القدسي (لو اجتمع الانس والجن على ان يضروك بمالم يضررك به الله ما اضروك.. ولو اجتمع الانس والجن على ان ينفعوك بمالم ينفعك به الله ما نفعوك) فاذا كان يقينه في الله بهذه الدرجة فبطبيعة الحال انه لا يتطلب رضاهم بسخط الله ولا بلومهم على مالم يؤته الله وهذا ادنى ما ينبغي للمؤمن ان يكون عليه من اليقين.. وليس انه يـدعي اليقين بلسانه واذا لاحظت افعاله ما وجدت فيها شيئا من اليقين، فهو دائما وابدا ينظر الى الناس يخاف ان يتكلم عليه الناس ويخاف مثلا ان يبتعد عنه الناس ويخاف ان يزدريه الناس وان يضره الناس الى غير ذلك..

هذه الافعال ليست افعال ذي اليقين بل ان صاحب اليقين انما يسعى لتحقيق القرب من الله سبحانه وتعالى تحقيق رضى الله سبحانـه وتعالى، بصرف النظر عن الناس ان كانوا يرضون او لا يرضون وبصرف النظر عن الناس ان كانوا يمدحونه ام يذمونه، فهم لا يملكون له اجلا ولا يملكون له رزقا واذا اصابه منهم ضرر فانما ذلك بقضاء من الله سبحانه وتعالى وبمشيئته ومـا جرت بـه حكمته.. اما لببتليه ليصبر او لا يصبر او لانه يريد ان يفتح له بابا من الثواب يزيدبه ميزانه في الاخرة او غير ذلك من الوجوه او يطهره به عن بعض الذنوب، يفتح عليه باب مضرّة واذى من الناس سواء بـالكلام والشتم والغيبة او والعياذ بالله بالتسليط باليد كما حصل حتى للمعصومين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وكذلك الانبياء، فان ذلك يحصل لهم ولكنهم يعلمـون ان ذلك من الله سبحانه وتعالى وان ذلك قضاء منه ومما جرت به مشيئته، فانسان ليزداد ثوابا وانسان ليحصل عنه اجرا وانسان لتكفّر عنه الذنوب وانسان ليبتلى..

وفي الحديث عن النبي (ص) (ان الله يبتلي عبده فاذا صبر اجتباه وان رضى اصطفاه).. اذا صبر على البلاء اجتباه واذا رضى بهذا البلاء في ذات نفسه اصطفاه وجعله من المصطفين..

ان الله يعلم بعبده ان ايمانه مستقر او مستودع ولكن لاقامة الحجة وحتى يهلك من هلك عن بينه ويحيا من حي عن بينـة.. انـه يختبـر عبـده والاختبارات شتى، تارة بالغنى وتارة بالفقر، تارة بحب الناس وتارة ببغض الناس تارة بان يجعله ملكا حاكما وتارة بان يجعله في سجن مظلم.. الابتلاءات انواع متضاربة.. الشيء ونقيضه كلاهما ابتلاء.. ولا تظن ان انسانا يعيش في الدنيا ليس له ابتلاء..

وايضا يكون حجة على غيره في هذا الابتلاء. يؤتى بمن ابتلي بنفس البلاء فلم يصبر واعترض على الله سبحانه وتعالى في قضائه.. ويؤتى بشخص اصابه من نوع هذا الابتلاء اضعافا مضاعفة ويقال له الا تعرف فلانا ؟ فيقول نعم.. هل اصابتك اشد ام اصابته ؟ فيقول لا هو اشد.. فيقال له انه لم يعترض على الله وقد رضي بالله وها هو قد انعم الله عليه.. ايضا هو بذلك الابتلاء يكون حجة على غيره وقد يكون حجة لغيره ان يصبر..